التعليم وتكوين النخبة في الجزائر مع بدايات القرن العشرين

الطاهر عمري، المدرسة العليا للأساتذة، قسنطينة، الجزائر

ملخص

يعالج هذا المقال وضعية المجتمع الجزائري بالنسبة إلى علاقته بالتعليم الإسلامي وبديات تفاعله مع المدرسة الاستعمارية التي وإن لم تشهد انتشارا واسعا بين الجزائريين إلا أن تأثيرها كان محسوسا بالخصوص بالنسبة إلى النخبة الجزائرية الحديثة التي بدأت في الانبثاق.

Resumé

Cet article met en lumière la situation de la société algérienne vis-à-vis de l'enseignement arabe, ainsi que ses affrontements avec l'école coloniale. Les premiers balbutiements de l'élite algérienne ont été marqués par les effets de l'école coloniale, bien que les possibilités de sa fréquentation fussent limitées durant toute cette période.

❖❖❖

نعني بمصطلح «النخبة» الشريحة القيادية، التي تفكر في المجتمع ومن خلاله، وتضع الخطط للمشاريع الكبرى التي تقرر مصير الأمة ومؤسساتها. وإذا كان دور النخبة بهذه الأهمية، فإن من يدرس أوضاع البلدان العربية والإسلامية يلاحظ أن تخلفها يعود من جهة، إلى الظروف الاستعمارية وموروثها في ميادين الاقتصاد، والتعليم والإدارة، والتقنية والمعمار وتخطيط القرى والمدن، والعلم وغيرها من المجالات الحيوية.. ومن جهة أخرى إلى تعقيدات مرحلة الاستقلال الوطني بما في ذلك عدم وجود خيارات وتصورات للتنمية الأكثر عنصرية وحداثة. وبشأن هذا العنصر الأخير فإن المسؤولية تلقى على عاتق النخبة المتعلمة وعلى الأجهزة السياسية والتنفيذية.. وبما أننا سوف نؤجل الحديث عن النخبة في مرحلة الاستقلال، فسوف نقتصر في هذا المقال على تحليل مدى تأثير المدرسة الاستعمارية في توجهات النخبة الجزائرية، وصقل خياراتها بالنسبة إلى تصور مصير المجتمع الجزائري. والصعوبات التي واجهتها من خلال دراسة مسارات بعض الشرائح الأكثر بروزا على سطح الأحداث.

أولا- النخبة... صعوبات الانبثاق

ذكرت التقارير الاستعمارية أن فرنسا حين تمكنت سنة 1880 فرنسا من فرض نوع من الأمن والاستقرار على مجموع التراب الجزائري شرعت في "الغزو" الروحي والفكري لرعاياها الجزائريين، وبدأت بتأسيس المؤسسات التعليمية وتطويرها، تمهيدا لالتحاق الطلبة الجزائريين بالمؤسسات الثانوية والعالية. وهكذا -يقول صاحب التقرير- بدأت تظهر بين الجزائريين مع بدايات

القرن العشرين فئة يمكن تصنيفها في دائرة البرجوازية الفكرية، وكانت هذه الفئة تتغذى من ثقافة أوربية وأفكار ليبرالية لم تكن تستوعبها في غالب الأحيان، بل كانت تتلهف للعب دور قيادي في المجتمع، وللظهور أمام مجتمعها الأصلي كرائدة لعهد جديد من الحرية والتقدم[1]. وسنحاول من خلال هذه المقالة أن نحلل بواكير هذا العهد الجديد الذي انفتح أما الجزائريين، والصعوبات المادية والاجتماعية والنفسية والتاريخية التي كانت تحول بينهم وبين الانخراط الكامل في الحداثة الأوربية.

1- المدرسة الاستعمارية: فرصها ونقائصها

حلل الباحث موريل دور المدرسة الفرنسية في تكوين النخبة الجزائرية الحديثة بقوله: تساهم المدرسة في تكوين النخبة من حيث أنها تقود كل واحد من تلاميذها إلى اكتشاف مواهبه الخاصة وتدفع الأفضل من بين هؤلاء إلى فرض وجوده والانخراط في مختلف الميادين الهامة(..) ويقسم هذا الباحث النخبة المكونة في المدرسة الفرنسية إلى فئتين: العامة من التلاميذ الذين لم تسمح لهم إمكاناتهم المادية وظروفهم الاجتماعية من الاستفادة من الامتيازات المذكورة سابقا، ولكن هذه الفئة - يقول موريل - استفادت من المدرسة الفرنسية بكونها حسنت من ظروف عملها، كما أن نظرتها إلى العالم صارت أكثر تطورا. وهناك فئة أخرى شكلت في نظره "نخبة النخبة" وتنحدر من التعليم الثانوي أو العالي، وهذا الصنف يحدث له في بعض الأحيان أزمة ضمير بين طموحها وواقع مجتمعها الجزائري، وأحيانا أخرى تنخرط في العمل السياسي.[2] ويمثل فرحات عباس هذا النوع من النخبة التي انخرطت في العمل السياسي، وهو الذي يصف لنا في كتابه (الشاب الجزائري) التأثير الذي مارسته المدرسة الفرنسية على سلوكه وطريقة تفكيره في أبلغ عبارة بقوله: حين كنت أبلغ من العمر اثني عشر سنة كنت أعدو في الحقل حافي القدمين دون أن أعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية، لا فرق في ذلك بيني وبين راعي الماشية في قريتنا.. واليوم بفضل المدرسة الفرنسية صرت قادرا على بناء أسرة وتربية أولادي، كما صرت قادرا على أن أعيش وأموت من أجل وطني.[3]

وإذا كانت النخبة الجزائرية لم تدخل المعترك السياسي إلا بعد الحرب العالمية الأولى، فإن التعليم الفرنسي الذي كان متاحاً لبعض الشباب من الجزائريين خلال ثلاثين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر قد أنتج متعاونين مع الإدارة الاستعمارية، قاموا لصالحها بأدوار أثرت على مصير مجتمعهم.[4] وكان من بين هؤلاء المتخرجين من المدارس الفرنسية مترجمون عسكريون ساعدوا الاستعمار في اختراق المجتمع الجزائري ، وصار بعضهم- فيما بعد- من كبار ملاك الأراضي. وكان منهم الضباط أمثال ابن داود وقاضي، ومدرسون مثل ابن فاتح[5] الذي كان خلال ثورة 1871 يساعد أومال في ميليشيات المعمرين. وكان منهم أيضا البروفيسور مجدوب بن خلفات،[6] الذي ألف كتاباً بعنوان إدماج وتعليم الأهالي.[7]

ولكن هذه النتيجة التي وصل إليها الاستعمار لا يمكن تعميمها على سائر فئات المجتمع الجزائري، ذلك أن ردود الفعل على توغل الاستعمار الفرنسي بواسطة التعليم اختلفت باختلاف فئات المجتمع الجزائري وتنوع مشاربها الثقافية، وتعدد مصالحها المادية أيضا، وهو نفس ما حدث مع بدايات الغزو[8]. فلم تكن هذه الفئات ـ في نظرنا ـ تستجيب بنفس الكيفية ولا بنفس القدر لتوغل التعليم الاستعماري، كما أننا نحتاج للاطلاع على المصادر العربية والفرنسية التي كتبها الجزائريون بهذا الشأن، وهي نادرة في حدود إطلاعنا، لكي نقيس مدى تأثير التعليم الاستعماري وتغلغله في المجتمع الجزائري خلال هذه المرحلة.

ولكن هناك معطيات تاريخية تجعلنا نعتقد أن نصف القرن الأول للاستعمار في الجزائر لم يكن فاشلا تماما في مجال التعليم؛ إذ يذكر إسماعيل حامت أن الوزير جول فيري تفاجأ عندما التقى في قسنطينة، سنة 1891، عضوا جزائريا بالمجلس البلدي يرتدي الزي الفرنسي،[9] هو الدكتور مرسلي.[10] ولم يكن هو الوحيد من المتعلمين بالمدرسة الفرنسية، الذين لم يكن يطلق عليهم خلال هذه المرحلة لفظة الشبان الجزائريين les jeunes algériens [11]

ويرى برفييه أن الأيديولوجية الاستعمارية بدأت في هذه المرحلة تتغلغل في فراغ المجتمع الجزائري[12] بواسطة التعليم. إذ كانت المدرسة الجمهورية التي وضع أسسها جول فيري تنشر بين الشبان الجزائريين مقررات تعليمية، يحتمل واضعوها أن يؤدي بهم تمثلها إلى أن يصبحوا مواطنين يدافعون عن حقوقهم ويحمون مصالحهم، وليس مجرد رعايا تابعين للسلطة الحاكمة،[13] ولكن هذا المشروع في رأينا كان مجرد فكرة في أذهان واضعيه من السانسيمونيين، ذلك أن تكوين المواطن الذي يدافع عن مصالحه ويشعر بحريته كانت له آثاره الإيجابية في أوربا خصوصا بعد الثورة الفرنسية، ولكن تنفيذ هذا المشروع في الجزائر التي تختلف عن أوربا في الدين والثقافة واللغة ونمط الحياة، سيكون مظهرا من مظاهر تخريب بنى المجتمع الأصلية لتحل مكانها الأيديولوجية الاستعمارية. وكان الوضع كما وصفه عبد الله العروي بأنه نوع من تحطيم العلاقات بين المجال التاريخي المتمثل في الدولة والمدن والعدالة والتقاليد الإسلامية والثقافية والأخلاق العربية، وبين البنية التحتية للتاريخ المتمثلة في الزوايا بالريف والحياة الخاصة للأفراد . ثم جاءت الأيديولوجية الاستعمارية لتضع نفسها بين الطرف الأول والثاني، وتفرض نفسها على التاريخ، إذ دفعت البنية الأولى إلى التحطيم والتلاشي والثانية إلى التدهور والموت..."[14] ووصف أوغسطين بيرك التدهور الفكري للنخبة الجزائرية وتغلغل الأيديولوجية الاستعمارية بينها، مع نهايات القرن التاسع عشر، بقوله: إن هذا الجيل فقد صلاته بوسطه الأصلي الذي كان قائما قبل 1830، ولم يعد لديه ما كان موجوداً لدى أسلافه من الشعور المتقد بصدمة الاستعمار.[15]

2- قبول المدرسة الفرنسية أم إنقاذ التعليم الأصلي؟

كان هجوم الاستعمار على التعليم الأصلي بالجزائر بمثابة الإجهاز على آخر بنى المجتمع الجزائري، ومن ثم فإن هذه الأرضية المتمثلة في التعليم ستكون آخر جبهة لمقاومة المجتمع ضد

توغل الاستعمار في هذه المرحلة، كما أنها سوف تكون الجبهة الأولى التي ستظهر من خلالها الصيغ الجديدة للمقاومة، والتي سوف يتمحور حولها النضال الوطني فيما بعد.[16]

أما بخصوص موقف الجزائريين من المدرسة الفرنسية، فإذا استثنينا بعض الفئات الساعية وراء مصالحها الخاصة وامتيازاتها[17]، فإنه لم يكن يعبر سوى عن خضوع مؤقت للقوة، ودليل ذلك أنه بعد هزيمة فرنسا أمام بروسيا ، سنة 1870، سجلت التقارير الاستعمارية فراغ المدارس من التلاميذ الجزائريين.[18] فقبول الجزائريين بالتعليم الاستعماري بعد 1871 كان راجعا – في رأينا – إلى القوة العسكرية والإدارية للاستعمار خلال هذه المرحلة. ذلك أن الجزائريين ظلوا إلى غاية هذا التاريخ يعتقدون أن سلطة الاستعمار في الجزائر لن تطول، ولكن بعد فشل ثورة المقراني، خضع الجزائريون للقوة في قبول هذا النوع من التعليم، إذ صرح بعضهم: إنكم أنتم السادة، فإذا طلبتم أن نبعث بأولادنا إلى مدارسكم فإننا نفعل ذلك.[19]

والأقرب إلى تفسير تعامل الجزائريين مع هذا التحدي هو أن هؤلاء كانوا يرون في تأسيس جهاز التعليم الاستعماري اعتداء صارخا على ثقافتهم الأصلية، ولكنه كان في نظرهم اعتداء غير مباشر. ذلك أن هذا الجهاز التعليمي الجديد لم يكن يمس سنة 1889 سوى 2% من الجزائريين في سن التمدرس، وكان ذلك بسبب العقبات والعراقيل التي وضعها المعمرون. ثم إن المدرسة الاستعمارية[20] كانت تستعمل كذريعة غير مباشرة لغلق الزوايا، التي لم يكن يتم تعويضها – غالبا – بأي مدرسة فرنسية. ولم يكن الجزائريون، إلى غاية الحرب العالمية الأولى، يطالبون بالتعليم الفرنسي لأنهم – كما ذكرنا – كانوا يعتبرونه تهديدا خطيرا لقيمهم الثقافية، ولأن هذا النوع من التعليم كان يظهر للكثير منهم دون جدوى، لأنه لم يكن يمنحهم فرصا للترقية في الوسط الاستعماري.[21]

كما كانت النخبة من الجزائريين إلى سنة 1913 ترفض التعليم المخصص للأهالي لأنه كان يضعها في مرتبة دونية ويشكك في قدرتها على استيعاب البرامج الدراسية المقررة على زملائهم من أبناء المعمرين. وكان الشريف بن حبيلس في هذه المرحلة يتساءل: هل الشاشية التي يحملها الجزائري فوق رأسه تعد رمزا للدونية؟ لقد أثبت كثير من أبناء جلدتنا بتفوقهم على زملائهم الفرنسيين خطأ هذه الفكرة.[22]

إنه يمكن فهم دوافع رفض المجتمع الجزائري للمدرسة الاستعمارية – في هذه المرحلة – بالنظر إلى البرامج المقررة بها، التي كانت تهدد دينهم ووطنيتهم. ورغم أن الدين لم يكن مهددا بصورة مباشرة بسبب ضعف المدارس التنصيرية في هذه المرحلة، ونظرا لكون " الأفكار الحديثة التي كانت تنشرها المدرسة العلمانية[23] ، ظلت تخفف – دون شك – من الأحكام الدينية المسبقة. ولكن الأخلاق اللائكية في حد ذاتها ليست في الواقع سوى أخلاقا دينية تمت علمنتها كما يقول برفيي، وقد دعمت برامج 1898 هذا التوجه لصالح القيم الدينية المسيحية.[24]

قامت نخبة من مدينة قسنطينة[25] سنة 1887 بكتابة عريضة موقعة من ممثلي مختلف الشرائح الاجتماعية بها، وتضمنت هذه العريضة ـ كما يقول الأشرف ـ ما هو أفضل من

الأيديولوجيا.[26] فما الذي تضمنته هذه العريضة وما هي الاستنتاجات التي يمكن الخروج بها من تحليل مضمونها؟ كانت هذه العريضة تعبر عن مقاومة " بقايا " البنى الأصلية للأيديولوجية الاستعمارية وكان الموقعون على هذه العريضة يطالبون باستعادة البنى والمؤسسات التي كانت موجودة بالجزائر قبل دخول الاستعمار، لأجل مقاومة التدهور الثقافي والاجتماعي[27] الذي صار يعاني منه المجتمع الجزائري.

وقد اعتمد أحد الباحثين على تحليل هذه العريضة الممضاة في سنة 1887م الموجهة إلى مجلس الأمة الفرنسي من طرف أعيان قسنطينة في التعرف على الفئات المكونة للنخبة داخل المجتمع الجزائري في هذه المرحلة. فقد ذكر محرّروها أن عدد الموقعين عليها كان ألفاً وسبعمائة (1700) شخصية كان بعضهم أعضاء في المجلس البلدي لمدينة قسنطينة، وبعضهم أعضاء في المجالس العامة وفي الغرفة التجارية، وبعضهم كانوا شيوخا وأئمة ومعلمين ومدرسين بالمدارس العليا وأعيانا من المدينة وملاكا وتجارا وصناعيين..الخ[3] ولاحظ نفس الباحث أنه لم يرد في هذه الوثيقة أسماء من النخبة المتخرجة من المدارس الفرنسية، من المعلمين أو المدرسين بالثانويات ولا ضباط الجيش ولا المحامين ولا الأطباء. ورغم أن عدد هؤلاء كان قليلاً في هذه المرحلة ولكن كان ممن الممكن - في نظره - أن يرد ذكر لأسماء بعضهم في هذه العريضة ولو على سبيل التضامن بين الجزائريين. وتساءل إذا لم الأمر يتعلق ببروز مبكر للاختلافات في الرؤى بين النخبة من الأعيان التي كانت متمسكة بالتقاليد الإسلامية ورفض كل ما لا يتماشى مع تعاليم الإسلام والنخبة "المتطورة" كما يسميها المعمرون، التي كانت لها وجهات نظر مختلفة برز بعضها في المذكرة التي أرسلها لويس خوجة وكيل عدل بمدينة عنابة إلى لجنة الثمانية عشر المشكلة من طرف مجلس الأمة الفرنسي برئاسة جول فيري، حيث نلاحظ من خلال هذه المذكرة طرحا مختلفا عن طروحات النخبة التقليدية.[4]

ورغم قوة مطالبة الجزائريين في المدن بإصلاح التعليم الأصلي إلا أن الأيديولوجية الاستعمارية التي كانت تقوم على أساس نفي البنى الأصلية للمجتمع الجزائري لخدمة هدف محدد هو الإدماج، لن تستجيب - على الأقل في هذه المرحلة - لهذه المطالب، ولذا فقد كان على هؤلاء أن يبحثوا عن إطار آخر لتحقيق طموحاتهم، وتقوية موقفهم في المطالبة السياسية.

3- هل هُجرت العربية؟

وتنبغي الإشارة هنا إلى كون التأثير الذي كانت تمارسه الأفكار الإلحادية وصار يهدد المجال الحيوي للإسلام والثقافة العربية في الجزائر كان يجد فرص نجاحه في الفراغ العلمي والتربوي الذي كان يعيشه المجتمع، فقد كانت نسبة المتعلمين بين الجزائريين إلى غاية 1901 لا تتجاوز 3 %بينما وصلت بين المستوطنين الأوربيين إلى حوالي 84% وهو فرق كبير دون شك. وهذه الإحصائيات(*) تؤكد ما ذكره المفكر المصري محمد فريد عند زيارته للجزائر في أوائل هذا القرن بقوله: "هجرت ربوع العلم وخربت دور الكتب وصارت الديار مرتعا للجهل والجهلاء وكادت تدرس(تتطمس) معالم اللغة العربية الفصحى وتطرقت إلى اللغة العربية الكلمات الأجنبية، بل

أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران والجزائر وقسنطينة وعنابة وغيرها.." [28]

ولكن هل يمكن التسليم بهذا الرأي دون عرضه على شهادات أخرى خصوصا من الجزائريين الذين كانوا أكثر معرفة بواقع مجتمعهم؟ الواقع أن هناك ما يخالف الرأي الذي أورده محمد فريد خصوصاً في موضوع استعمال اللغة العربية في المدن الجزائرية، فقد ذكر فرحات عباس أن اللغة العربية ظلت، على الأقل إلى غاية نهاية العشرينيات من القرن العشرين، هي لغة التخاطب في البيت وفي الشارع وفي فناء المدرسة، وهذا ما جعل النخبة المتفرنسة ـ كما قال فرحات عباس ـ تشعر بصعوبة التحكم في استعمال الفرنسية لأنها لم تكن تستعملها في البيت أو الشارع. وهذا الرأي الذي أورده فرحات عباس هو الأقرب في نظرنا إلى واقع الحال في المجتمع الجزائري آنذاك، والظاهر أن ملاحظة محمد فريد كانت قاصرة على فئة معينة لم تكن تتقن العربية وفي مدن بعينها. وهذا ما يوحي بكون الملاحظة التي قدمها محمد فريد بالنسبة إلى هيمنة اللغة الفرنسية على المجتمع الجزائري كانت خاصة بالفئات التي التقى بها هذا الأخير في مدن معينة.

ويمكن انطلاقا من هذه الشهادات أن نصل إلى الخلاصة التالية: لقد اختلت مع نهاية القرن التاسع عشر البنية الثقافية –الاجتماعية للمجتمع الجزائري. وأدى ذلك إلى كسر القاعدة الثقافية والتأثير على انسجام عناصرها، كما أن مجال الثقافة الإسلامية واللغة العربية قد تقلص لصالح اللغة والثقافة الفرنسية[29]. ولذا فإن نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مثلت حقبة هامة وعميقة الأثر بالنسبة إلى الفلك الثقافي الجزائري إذ انهار النظام التربوي والتعليمي القديم انهياراً جزئيا وقام محله نظام تربوي استعماري[30] لم يستكمل بعد تأثيره على المجتمع الجزائري.

ثانياً- فلك ثقافي جديد

أدت مصادرة المؤسسات الثقافية الأصلية إلى تقلص الإشعاع الثقافي الذي وجد قبل الاحتلال في بعض المراكز[31] وبلغ الاستلاب الثقافي المراكز الحضرية بصفة عامة مع استثناءات قليلة جدا،[32] مثل قسنطينة التي حافظت-كما ذكرنا- على بعض بناها الثقافية[33] أما الأرياف فقد تنازلت – كرها- عن دورها التربوي ولم يبق بها سوى بعض الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم وبعض قواعد اللغة العربية. ومع دخول كثير من الزوايا في خدمة الاستعمار[34] بدأ عدد المثقفين المعربين يتقلص وأخذ مستواهم ينحط وحتى المدارس التابعة لمساجد ندرومة وتلمسان والجزائر العاصمة صارت لا تضم سوى مستمعين أميين وطلبة ذوي مستوى ثقافي ضعيف، إذ كانوا عاجزين عن فهم آيات القرآن وربطها بواقعهم الاجتماعي والاقتصادي.[35]

إن تفكيك البنى الاجتماعية الثقافية في الجزائر كان حدثاً بالغ الأهمية في التاريخ الاجتماعي للجزائر، غير أن هذا التفكيك لم يكن كليا ولا شاملاً إذ أن هناك تجمعات ثقافية

وعلمية تقليدية بقيت وبراعم من الثقافة الفرنسية انبثقت لتخلفه. وأخذ فلك ثقافي جديد في التشكل يتغذى من إعادة تحليل الماضي انطلاقا من الوضع الاستعماري ومن تطور الوعي في ظل المقاومة.[36]

ومن هنا فإننا سوف نأخذ في الاعتبار عند تتبعنا لتطور المجتمع الجزائري في جوانبه المختلفة ثلاثة عناصر هي: بقايا البنى الأصلية وتأثير الواقع الاستعماري وتطور وعي النخبة من خلال المواجهة اليومية مع الاستعمار. ذلك أن حوار النخبة الجزائرية الناشئة كان يدور أساسا حول علاقة الإسلام بالغرب وعلاقة التقليد بالحداثة. وهذا الحوار كان في حقيقته يمثل بحثا عن مشروع اجتماعي جديد يعيد المبادرة للمجتمع الجزائري.[37] ولكن هذا الطموح مع بدايات القرن العشرين كانت تحول دونه عوائق كثيرة، ذلك أن المدارس العربية–الفرنسية التي تم تأسيسها في ظل الإمبراطورية الفرنسية الثانية، وكانت تعلم العربية وبعض جوانب الثقافة الإسلامية، هذه المدارس تم إغلاقها مع الجمهورية الفرنسية الثانية وتعويضها بفتح ثلاثة مدارس تسمى مدارس التعليم العاليالإسلامي.(*) وقد أدت هذه السياسة الاستعمارية إلى ظهور النقص المعتبر في عدد المثقفين ثقافة عربية وضعف انتشار هذه الثقافة، كما أنه مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أخذت اللغة العربية وضعها القانوني كلغة أجنبية.[38] وقد ذكر بن حبيلس أن عدد المثقفين الجزائريين بين 1877 إلى 1911 كان حوالي 150 مثقفا بين خمسة ملايين جزائري مسلم[39] وبين هؤلاء المائة والخمسين لا بد من حساب المثقفين بالثقافة العربية–الإسلامية التي ترجع إلى العصور الإسلامية الوسيطة[40].

1- النخبة الجزائرية في بداياتها: بين المقاومة والحوار

إنّ جزائر نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لم تعد تشهد تجربة الأمير عبد القادر سوى كذكرى عابرة، كما أن فشل ثورة 1871 أثبت استحالة مواجهة النظام الاستعماري باستخدام الوسائل القديمة في المقاومة. أما الأسلحة الحديثة التي تستخدمها الحركات السياسية والأحزاب عبر العالم فلم يتم استحداثها بعد، وبالتالي صار هناك انقطاع بين المقاومة في القرن الماضي والحركة الوطنية التي سوف تظهر فيما بعد في صورة أحزاب سياسية[41].

ويؤكد سعد الله على هذه الملاحظة بقوله:« لقد كان من الممكن لو لم تقمع المقاومة في القرن الماضي ويطرد رجالها أن يمنح ذلك استمراراً للحركة الوطنية. »[42]ولكن هذا التعطيل قد أوجد فراغا بين الوطنية الجزائرية الحديثة والمقاومة في القرن الماضي. غير أن هذا الانقطاع في رأينا لم يكن ناتجا مباشرة عن القمع العسكري وإنما كان ناتجا عن تحطم البنى الأصلية التي جعلت استمرار الظاهرة أو تكرارها أمرا مستحيلاً[43]. وكل ما بقي واستمر إلى بداية القرن العشرين هو تراث ثقافي عربي إسلامي وتجربة قائمة على أساسه كانت تحتاج إلى تفعيلها مع المعطيات الجديدة المتمثلة في ظهور نخبة جزائرية حديثة وظهور أيديولوجيات جديدة على المسرح

الدولي مثل دعاية الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى والاشتراكية في أوربا وتنافس الدول الكبرى الأوربية.[44]

ويذكر أن الجزائر مع بدايات القرن العشرين عاشت إرهاصات صحوة وطنية بعد أن منيت في أواخر القرن الماضي بشبه غيبوبة من اليأس والانطواء النفسي المعقد الذي تولد على مر الأيام من فشل الثورات المتلاحقة وتسلط الاستعمار.[45] ومن هذه الإرهاصات نذكر بعض الانتفاضات المحلية ولصوصية الشرف[46] والهجرة نحو المشرق العربي ثم ما يسميه جغلول المقاومة-الحوار التي كانت تحاول رغم اعترافها مؤقتا بالواقع الاستعماري، أن تجعل هذا الواقع أقل ضررا على الجزائريين كما كانت تحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه وخاصة ما تعلق بالهوية الثقافية[47]، كما كان هناك مقاومة ثقافية تمثّلت في مولد الصحافة التي كانت تحاول إحياء التراث التاريخي للجزائر في إطاره العربي الإسلامي وخاصة العهد الذهبي الذي يوافق العصور الوسطى الإسلامية، ولم تكن هذه الصحافة تخلو من مضمون وطني[48] لم يتحدد محتواه الأيديولوجي بعد.

ومن هنا فإننا نؤكد على الفكرة التي ذكرناها سابقا من كون التراث العربي الإسلامي هو الذي شكل المعبر نحو أيديولوجية وطنية تبلورت طيلة مرحلة ما بين الحربين العالميتين ولكنها ظلت في بداية القرن العشرين عبارة عن مقاومة ذاتية للثقافة العربية الإسلامية على حد تعبير أحد المحللين[49] ذلك أن مفهوم الوطنية والقومية والجنسية لم تكن مطروحة بالنسبة على الجزائر وباقي البلدان العربية والإسلامية بنفس المضمون الذي عرفته أوربا الغربية بل كانت تتدرج ضمن مفهوم خاص، وظلت تصدر عن عامل مشترك هو العقيدة الإسلامية والانتساب إلى الحضارة العربية الإسلامية.[50] وقد ظل تفعيل هذا المضمون على المستوى الفكري والسياسي مرهونا بتطور النخبة الجزائرية وتوجهاتها منذ بدايات تكوينها.

بدايات النخبة

جاء في أحد التقارير الفرنسية أن نشاطات النخبة التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت محدودة جدا ولم يكن لها أي امتداد جدي في الأوساط الأهلية. ولكنه ذكر-أيضا-أنه كان هناك بعض ما يطلق عليه المثقفون الذين يصفهم "بالثمار العقيمة" للمدارس والذين يسميهم البعض "المعممون الجدد" في مقابلة "المُعمَّمين القدامى" Les Vieux Turbans. ووصف التقرير هذه النخبة الجديدة بالطموح والبحث عن الوظائف وتحقيق المصالح، كما وصف سعيها في الدفاع عن مصالح الجزائريين "بالأفلاطونية" التي لم تكن الجماهير تعيرها اهتماما إلا بعد مرور عشر سنوات من بدايات القرن العشرين، عندما بدأت هذه الجماهير تشعر بقوتها وتلاحمها. ولكن منذ 1910 بدأت الجزائر تشهد مرحلة قلقة ببروز توجه النخبة الجزائرية نحو خيارات فكرية وسياسية معينة خصوصا مع الثورة التركية وما فتحه من أبواب النقاش والتعليقات[51].

وإذا أخذنا الوضع في مدينة قسنطينة مثلاً فإنه قبل بروز الأنتلجنسيا الحداثية - كما يسميها بعض الباحثين - لتلعب دورها في الساحة السياسية كان المنتخبون يختارون من بين زعماء

الأهالي الذين يمثلون العائلات الكبيرة البرجوازية والتقليدية وكذا مقدمي الزوايا، وكانت الإدارة الاستعمارية هي التي تشرف على هذا التعيين. واشتهرت هذه النخبة التقليدية بخضوعها وعدم اعتراضها-إلا نادرا- على تصرفات الإدارة الاستعمارية وذلك في رأي أحد ممثليها وهو م. بن باديس حتى لا تحدث اضطرابات في المدينة.[52] وقد أظهر الشريف بن حبيلس سنة 1914 نقدا لاذعا لبرجوازية المدن التي وصفها بالجهل والتكبر خصوصا في مدينة قسنطينة.[53]

إن بعض المحللين يرجع بروز النخبة التقليدية على الساحة الثقافية والسياسية الجزائرية إلى الثمانينيات من القرن الماضي، إذ بعد مضي قرابة خمسين عاما على احتلال الجزائر تخرجت مجموعة من الجزائريين من المدارس[54] الفرنسية والمدارس الفرنسية الإسلامية هذه المجموعة أطلق عليها اسم النخبة لأنها كانت أقلية ضئيلة متشبعة بالثقافة العربية أو بثقافة مزدوجة.[55]

واستهلت هذه النخبة الجزائرية بداياتها في جو عمل فيه بعمق توغل الاستعمار، إذ تحول إلى مجتمع منزوع الثقافة بفعل هدم وإخضاع الأجهزة الثقافية التي كانت موجودة قبل دخول الاستعمار . وداخل هذا الوسط الاجتماعي-الثقافي، حيث كان المجتمع الجزائري يتلمس خطاه ويبحث عن مخرج للحال التي وصل إليها، ظهرت العناصر الأولى من هذه النخبة التي تربت- جزئيا على الأقل- في الجهاز الثقافي الاستعماري، ولذا فقد كانت دون شك نخبة صغيرة هشة تفتقر إلى القاعدة الاجتماعية التي تسندها.[56]

وإذا ضربنا صفحا عن الفئة التي حصلت على هذا اللقب باعتبار أنها تنتمي إلى العائلات الكبيرة المدجَّنة من قبل الإدارة الاستعمارية.[57] فإننا نجد النخبة الجزائرية المثقفة قد استقلت بميزتين رئيستين: الأولى أنها نشأت في إحدى سلسلتي النظام المدرسي الاستعماري، سواء تمثل ذلك في المدرسة الفرنسية أو المعاهد الإسلامية العليا ونادرا في المدارس الحرة. وتذكر فاني كولونا أن المكانة التي عرفها التعليم وخصوصا التعليم الحديث في الجزائر وحتى في تونس ارتبطت أساسا بالمصادرات وفقدان المكانة المادية التي كانت عليها الأسر قبل الاحتلال.[58]

يقول محفوظ السماتي عن الظروف الاجتماعية التي أثرت في الإعداد لبروز النخبة الحديثة: إن هذه النخبة التي كانت تتأرجح بين نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كانت تمثل آخر حلقة من حلقات مجتمع تم محوه داخل التاريخ الاستعماري، ولكن هذه النخبة سمعت من أجدادها حكايات عن الماضي المجيد والمقاومات والمصادرات وعمليات طرد الأهالي والمجاعات والثورات وما أعقبها من قمع. وهذا الموروث الذي ترك لهذه النخبة كان قليلاً جدا بينما الصعوبات لا عد لها وتتمثل في مجتمعها المفكك وشخصيته الممحوة وثقافته المبعثرة ومؤسساته التي حولت نهائيا أو صارت لا معنى لها.[59]

أما الميزة الثانية لهذه النخبة فتمثلت في كونها احتلت وظائف ضرورية لسير جهاز الدولة الاستعمارية، يمكن تصنيفها إلى أربع فئات: فئة الأطباء مع الدكاترة ابن العربي وبن بريهمات[60] ومرسلي ونقاش[61] ..إلخ. وفئة الأساتذة مع بن سديرة[62] وبن شنب[63] وصوالح[64] ومعلمي مدرسة

بوزريعة، وكذا فئة العدالة والطقوس الإسلامية مع أبو بكر عبد السلام وابن شعيب وابن حبيلس وابن تامي[65] وغيرهم. ولا ننسى قطاع الجيش الذي كان يضم في صفوفه-كمترجمين-بعض أفراد هذه النخبة التي سوف تكون عاملا محركاً للفلك الثقافي الجزائري[66].

2- النخبة: مشارب وتوجهات

في حوصلة لنتائج التعليم الفرنسي في الجزائر سنة 1914 ذكر آجيرون تخرج حوالي ألف متعلّم من الذين حصلوا على وظائف تضمن لهم مستوى كريماً من العيش. وهذا الإحصاء يقتصر على الموظفين الذي كانوا يتقاضون أجورهم من الحكومة ولا يدخل فيه المثقفون المعرَّبون غير الموظفين، الذين كانوا يحظون بتقدير وسط المجتمع رغم حالتهم المادية المزرية.[67]

ونفهم من هذا أن التعليم الاستعماري الموجه للجزائريين كان يسير بوتيرة متثاقلة[68] ولم يمس سوى شريحة محدودة جدا من المجتمع الجزائري، إضافة إلى التسرب المدرسي الذي لا يمكن إغفال تأثيره. وكانت ميكانيزمات هذا التعليم تعمل على توجيه المجتهدين من أصحاب المدى الطويل نحو التخصصات التي تكون موظفي الإدارة الاستعمارية وليس نحو "المهن الشريفة" التي تقود نحو الثانوية والجامعة.[69] أما النخبة المعربة أو ذات الشهادات غير الرسمية، والمتمثلة في المتخرجين من المشرق وتونس أو من المدارس المحلية في الداخل فقد كان عددها قليلا نسبيا خصوصا إذا عرفنا أن مستوى التعليم بالداخل قد عرف تدهورا كبيرا،[70] بينما كان الأمر مختلفا بالنسبة إلى المغرب الأقصى وتونس حيث تم الحفاظ على نظام التعليم الأصلي، بل إن تونس خصوصا قامت بإصلاحات عصرية خلال نهاية القرن التاسع عشر تشبه تلك التي حدثت في تركيا. فقد استمرت الزيتونة في تونس والقرويين في المغرب في تكوين النخبة التقليدية المعربة ذات المستوى التعليمي المعتبر[71] بينما كانت المدرسة الصادقية تكون النخب ذات الثقافة المزدوجة وذات الكفاءة العالية، كما كانت المدارس الفرنسية في هذه البلدان تقبل أقلية من الأهالي محدودة ولكن فعالة نظرا لأصولها[72] الاجتماعية.[73]

ويمكننا القول مبدئيا ودون تفصيل أن النخبة الجزائرية من حيث التوجه الفكري كان يتنازعها تياران: تيار الغرب الأوربي الذي فرض نفسه على الساحة بنجاحاته المادية الباهرة وتيار الفكر العربي الإسلامي الذي ظل يجتذب المثقفين كسلاح في مواجهة الاستعمار. وبفعل هذا الانتماء المزدوج صارت هذه الفئة تتأرجح بين وضعين قلقين: فهي كما ذكرنا دون قاعدة اجتماعية، توشك أن تنقطع عن المجتمع الجزائري عندما تنتقد انحطاط المجتمعات الإسلامية نظرا لاصطدامها بالمثقفين التقليديين، وتوشك من ناحية أخرى أن تندمج في المجتمع الاستعماري بشكل فردي، غير أن هذا المجتمع كان يضطهدها كلما تصورت نموذجا للتطور خارج الإطار الأوربي وكلما أقلقت السلطات الاستعمارية،[74]، وأيضا كلما حاولت أن تخرج عن الدور المنوط بها.[75]

لقد كان بعض المحللين الغربيين يطلق لقب "الشبان الجزائريين" Jeunes Algériens على هذه الفئة القليلة من المثقفين ذوي التكوين الفرنسي. وكانت هذه التسمية مسايرة للأحداث في ذلك الوقت، إذ كانت الأخبار تتحدث عن نشاطات "الشبان الأتراك" و"الشبان المصريين" والشبان التونسيين"[76] وبالتالي فقد أطلقوا نفس اللقب على النخبة الجزائرية،[77] ويقصد بها طبقة اجتماعية متوسطة أخذت تشق طريقها في الميادين الشعبية.[78]

وحتى نرفع الالتباس يجب أن نشير على أنَّ الأمر هنا لا يتعلق بحزب سياسي ولكن بمبادرات فردية معزولة لجماعة من المثقفين تمتاز بقدر من الثقافة السياسية كان يسمح لها بمناقشة مسألة التجنيس وتمثيل المسلمين في المجالس النيابية داخل الجزائر وفي فرنسا[79]. غير أن هذا لم يكن هو الطابع العام لجميع أفراد النخبة المتفرنسة خصوصا، إذ أن الغالبية من ذوي الشهادات الفرنسية ظلت منطوية على نفسها تمارس الوظيف اليومي ولا تهتم بشؤون المجتمع.[80]

خلاصة ونتائج

• كان الجزائريون يرون في تأسيس جهاز التعليم الاستعماري اعتداء صارخا على ثقافتهم الأصلية، ولكنه كان في نظرهم اعتداء غير مباشر. ذلك أن هذا الجهاز التعليمي الجديد لم يكن يمس سنة 1889 سوى 2% من الجزائريين في سن التمدرس، وكان ذلك بسبب العقبات والعراقيل التي وضعها المعمرون. ثم إن المدرسة الاستعمارية كانت تستعمل كذريعة غير مباشرة لغلق الزوايا، التي لم يكن يتم تعويضها - غالبا - بأي مدرسة فرنسية. ولم يكن الجزائريون، إلى غاية الحرب العالمية الأولى، يطالبون بالتعليم الفرنسي لأنهم- كما ذكرنا- كانوا يعتبرونه تهديدا خطيرا لقيمهم الثقافية، ولأن هذا النوع من التعليم كان يظهر للكثير منهم دون جدوى، لأنه لم يكن يمنحهم فرصا للترقية في الوسط الاستعماري.

• لقد أنتج التعليم الفرنسي مع نهاية القرن العشرين متعاونين مع الإدارة الاستعمارية، قاموا لصالحها بأدوار أثرت على مصير مجتمعهم. وإذا كانت النخبة الجزائرية لم تدخل المعترك السياسي إلا بعد الحرب العالمية الأولى، فإن التعليم الفرنسي الذي كان متاحاً لبعض الشباب من الجزائريين خلال بدايات القرن العشرين أثر توجهاتهم.

• كان هجوم الاستعمار على التعليم الأصلي بالجزائر بمثابة الإجهاز على آخر بنى المجتمع الجزائري، ومن ثم فإن هذه الأرضية المتمثلة في التعليم ستكون آخر جبهة لمقاومة المجتمع ضد توغل الاستعمار في هذه المرحلة، كما أنها سوف تكون الجبهة الأولى التي ستظهر من خلالها الصيغ الجديدة للمقاومة، والتي سوف يتمحور حولها النضال الوطني فيما بعد.

الهوامش

[1] « Rapport de Mr. Leheureux 1923 », 27H23, AOM, Aix-En-Provence

[2] Morel(J.), L'école et la formation de l'élite en Algérie de 1919 à 1939 (Mémoire dactylographié présenté en vue de l'obtention de la maîtrise en histoire sous la direction de J.L.Miège, Faculté des lettres et des sciences, Aix-En-Provence , p.88

[3] Abbas(Ferhat), Le jeune algérien, La jeune Parque-Paris1931 , p.9

[4] Hamet (I.), Les musulmans français du nord de l'Afrique, Librairie Armand Colin, Paris 1906, p.190

[5] ابراهيم بن فاتح ولد في 13 أوت 1850 بنواحي العاصمة خريج المدرسة العربية الفرنسية بالبليدة والمتوسطة العربية بالجزائر معلم متربص بالمدرسة العليا بالجزائر سنة 1866 وفي سنة 1870 اشتغل معلما مساعداً في أومال أين عمل كمساعد خلال انتفاضات 1871 في الميليشيا فرقة المدفعية. صار مديرا لمدرسة الجزائر سنة 1882 ومعلما للعربية في المدرسة البلدية بمدينة الجزائر سنة 1884 له عدة مؤلفات منها : الطرق المباشرة لتعليم العربية المنطوقة سنة 1904.

[6] مجدوب بن خلفات ولد في 4 أوت 1853 بقسنطينة أستاذ بالمدرسة العليا وبثانوية قسنطينة نشر كتبا منها إدماج وتعليم الأهالي، طرق القراءة والنطق العربيين، أملاء الكلمات العربية الأكثر استعمالا في الفرنسية.

[7] Sahli (M-C), Décoloniser l'histoire,Maspéro-Paris1967,p.115

[8] يراجع بهذا الشأن: الطاهر عمري، دور بنى المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار الفرنسي 1830–1900، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 1999.

[9] لم يكن الزي الأوربي شائعا في الجزائر مع نهايات القرن العشرين بل ظل الجزائريون يعتزون بلباسهم الأصيل وكانوا ينظرون بازدراء إلى كل من يظهر بمظهر الأروبيين.

[10] الدكتور مرسلي الطيب ولد سنة 1856 في بويزرط (وهران) ابن ملازم بفرقة الصبائحية خريج المتوسطة العربية بالجزائر وثانويتها طبيب ممارس بمستشفى قسنطينة أستاذ مكلف بدروس الوقاية الصحية بمدرسة قسنطينة مستشار بلدي سنة 1885 مكلف بمهمة طبية في جدة(المملكة العربية السعودية) لصالح الحكومة الفرنسية نشر عدة مقالات حول مسائل جزائرية.

[11] Hamet (I.), Op.cit, pp.190-191

[12] تعد المرحلة التي أعقبت فشل ثورة 1871 مرحلة يأس وقنوط بالنسبة للمجتمع الجزائري، شعر بعدها الجزائريون بسيطرة الاستعمار الفرنسي كواقع مهيمن، مع تهميش المؤسسات الجزائرية الأصلية الأمر الذي فرض نوعاً من الفراغ الرهيب لدى الجزائريين (المؤلف)

[13] Pervillé (G.), Les étudiants algériens de l'université française, Casbah Ed-Alger, 1997, p23

[14] Laroui (A),L'histoire du Magreb,Maspéro-Paris1976, p.320

[15] Berque(A.),"Les intellectuels algériens ",In: Revue Africaine.,1947,p.143

[16] Djeghloul (A.) "M'hamed Ben Rahal et la question de l'instruction des algériens"In : *Huit études sur l'Algérie*, CRASC , Oran, p.74

[17] لاحظ تقرير فيكتور كولسون مترجم قاضائي بجوماب(عزابة) نواحي قسنطينة أن المصلحة والبحث عن البحبوحة الشخصية ظلت دائما هي الدوافع القوية وراء اندماج الأهالي. انظر: Hamet, Op. Cit, p. 214

[18] Pervillé (G.), Op.Cit, p17

[19] Colonna (F.), Instituteurs Algériens, p p.36-37, Cf. Pervillé (E), Op.Cit, p 17

[20] استمدت المدرسة الاستعمارية في الجزائر مقرراتها من المدرسة الفرنسية بباريس ولكنها كيفتها مع الواقع الاستعماري في الجزائر أما الإدارة المدرسية فكانت تستنسخ من النموذج في فرنسا وتكيف مع الواقع الاستعماري منذ 1919.

[21] Djeghloul (A), "M'Hamed Ben Rahal ", Art. cité, pp 80-81

[22] Benhabylès(Chérif), L'Algérie française vue par un indigène ,Imprimerie Fontana, Alger1914, pp.31-32

[23] من بين 2430 معلما في التعليم العام كان يوجد سنة 1900–1901 حوالي 2353 معلما ومعلمة من اللائكيين و 77 من التابعين للمدارس الدينية المسيحية . وفي التعليم الخاص كان يوجد 53 معلما لائكيا و580 من التابعين للمدارس النصرانية وبناء على محاولات العلمنة لسنة 1900–1901 انحدر عدد المعلمين النصرانيين في التعليم العام من 105 إلى 77.وقد نصحت مصالح التعليم في الحكومة العامة بالجزائر أن تستمر علمنة التعليم العام في الجزائر لأنه في رأيها "في وضع متسم بوجود عدة أديان في الجزائر يجب المحافظة على حيادية التعليم العام كما هو عليه الحال في فرنسا" انظر بهذا الصدد :

Exposé de la situation générale de l'Algérie (1900-1938) , p.238

[24] Pervillé (G.), Op.cit. ,p.25

[25] حافظت مدينة قسنطينة — عموما– على نمط حياتها، و لم يؤثر فيها المعمرون بقوة، مع نهايات القرن التاسع عشر مثل المدن الأخرى كالعاصمة ووهران ينظر:

Emérit (M.) l'Algérie à l'époque d'Abd El Kader, La Rose-Paris1951,p.237

[26] Lacheraf (M.), L'Algérie:nation et société, Maspéro-Paris1976, p185

[27] Ibid. , p.188

[*] ذكرت مصادر الحكومة العامة في الجزائر أن التلاميذ من الأهالي في الجزائر سنة 1900–1901 كان يتم استقبالهم في كافة مؤسسات التعليم العام: في دور الحضانة والمدارس الابتدائية والإعدادية والعالية وفي الثانويات والمتوسطات ومؤسسات التعليم العالي. هذا بالإضافة إلى أربع مؤسسات كانت خاصة بهم وهي الدرس الأهلي الملحق بمدرسة تخريج المعلمين ببوزريعة والمدارس الثلاث في الجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان. وأخيرا هناك مدارس متخصصة للأهالي يجري فيها التعليم ببرامج خاصة. ويذكر هذا المصدر أن جميع هذه المؤسسات كانت تستوعب في السنة الدراسية 1900–1901 مايقارب 25284 تلميذا من المسلمين الجزائريين بينهم 803 في الحضانة (433 طفل و370 طفلة) و24172 في المدارس الابتدائية (22763 طفل و370 بنتا) و27 في مدارس المعلمين و 97 في الثانويات والمتوسطات و185 في المدارس المتخصصة. انظر بهذا الصدد :

GGA, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1900, p.241

[28] ناصر(محمد)، المقالة الصحفية في الجزائرية: نشأتها، تطورها، أعلامها من1903 إلى 1931 ، المجلد الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر 1978، ص.10

[29] تقديم محمد حربي لكتاب:Pervillé, OP.Cit., p.7

[30] جغلول، المرجع السابق ، ص.6

[31] انظر: الطاهر عمري، ((مراكز الثقافة العربية في الجزائر خلال العهد العثماني)) مجلة دراسات أدبية وإنسانية، عدد: 04، أفريل 2004، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة

[32] نفسه،ص ص.49–50

[33] كانت قسنطينة خلال هذه المرحلة هي عاصمة الشرق الجزائري وكان بها عائلات قديمة كان رئيس بلديتها أرنست مرسيي E. MERCiER قد ذكرها في كتابه وخصوصا العائلات المتحالفة مع الاستعمار من المخازنية

والعائلات الحضرية المسماة البلدية التي كانت متجذرة في مدينة قسنطينة منذ القديم وكان أصلها من البربر أو البربر المستعربين أو منحدرة من زواج عربي- تركي. ولاينبغي أن ننسى العائلات اليهودية التي كانت في المدينة وكان أصلها بربري ويمكن اعتبارها الأقدم في شمال إفريقيا. وهذه العائلات الحضرية كانت لها عاداتها المتميزة في طريقة التعبير واللباس.

[34] أكد مالك بن نبي في مذكراته على أن بعض الزوايا لم يقتحمها الاستعمار إلى سنة 1920 وما زالت تحافظ على القيم الأصلية التي عرفها المجتمع الجزائري ومن هذه الزاوية يذكر زاوية آفلو التي يذكر أنه تعلم بها فضائل الشعب الجزائري الذي ما يزال بكرا قبل أن يجهز الاستعمار على سائر فضائله ويقوم بإفسادها.

[35] صاري (الجيلالي) ومحفوظ (قداش)، المقاومة السياسية(1900-1954):الطريق الإصلاحي والطريق الثوري،ترجمة:عبد القادر حراث، م.و.ك،الجزائر1987 ،ص.240.

[36] جغلول، المرجع السابق،ص.17.

[37] جغلول،المرجع السابق،ص.6.

[*]كان التعليم العالي في الجزائر العاصمة يتم في المدارس الأربعة : الحقوق، الطب، الصيدلة، والعلوم والآداب. ولم تكن هذه المجموعة من التخصصات تشكل الجامعة كما نص عليها قانون 10 جويلية 1896، ولكن من وجهة النظام المعمول به والانضباط الموجود في هذه المؤسسات كانت تخضع لنفس الشروط مثل المعاهد الجامعية الموجودة في فرنسا. وكان المجلس العام للمدارس العليا بمثابة مجلس الجامعة انظر بهذا الصدد:

GGA ,Exposé de la situation générale del'Algérie(1900-1938), p.205

[38] Ihaddaden,Op.Cit.,p.59

[39] انظر في نهاية هذا الكتاب قائمة بأسماء من النخبة الجزائرية حسب مجالات اختصاصها(المؤلف)

[40] Benhabyles, Op.Cit.,p.29

[41] جغلول،المرجع السابق،ص.17.

[42] سعد الله،الحركة الوطنية الجزائرية،ج.2،ص.100.

[43] ينظر: عمري (الطاهر)، دور بنى المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار الفرنسي، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر – غير منشورة ، جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة 1999 ، ص ص.131 وما بعدها

[44] سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج.2، ص.100

[45] خرفي(صالح)،عمر بن قدور الجزائري،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر1984،ص.26

[46] لصوصية الشرف أو ما يعرف بالفرنسية le banditisme d'honneur هو نوع من ضرب مصالح المعمرين والالتحاق بالجبال دون أن يكون وراء ذلك أيدلوجية وطنية أو تنظيم سياسي(المؤلف)

[47] جغلول،المرجع السابق،ص.39

[48] الأصفهاني، الأصفهاني(نبيه)،" تطور الحركة السياسية في المغرب"في: ندوة القومية العربية في الفكر والممارسة،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1980 ،ص.32

[49] Taliadoros , Taliadoros (Georges .A), La culture politique arabo-islamique et la naissance du nationalisme algérien , E.N.A.L. Alger1985 , p.10

[50] سعيدوني(ناصر الدين)دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1988،ج.2، ص.13.

[51] Rapport de Mr. Leheureux 1923, 27H23 AOM- AIX-EN-Provence

[52] Haddad(M.), L'émergence de l'Algérie moderne, Impr. Guerfi-Batna2001, T.1, p.115

[53] Benhabylès(Chérif),Op. Cit. , pp.80-81

[54] ذكرت مصادر الحكومة العامة الفرنسية" أن مدارس العاصمة وقسنطينة وتلمسان قد تحصل من سنة إلى أخرى على نتائج هامة ومشجعة إذ صار التحاق التلاميذ بها سهلا وكان بتم في ظروف أفضل وذلك بفضل تطور المدارس الابتدائية الأهلية التي كانت تحضر المترشحين لدخولها. فتذكر هذه المصادر أنه في السنة الدراسية 1900-1901 التحق بهذه المدارس 74 من التلاميذ الذين تتوفر فيهم الشروط اللازمة واجتازوا امتحانات الانتقاء وفي نهاية السنة الدراسية المذكورة تحصل ستة من تلاميذ السنة السادسة على دبلوم الدراسات العليا التي تعادل شهادة تأهيل ممارسة مهنة باش عدل أو إمام أو مدرس في المساجد والمدارس الابتدائية. وتذكر هذه المصادر دائما أن تلاميذ هذه المدارس صاروا يحصلون على قدر هام من المعارف في المواد الشرعية الإسلامية ومستوى لا بأس به في المواد العلمية الفرنسية. بل إن تلاميذ المراحل العليا بهذه المدارس لهم الكفاءة يمكنهم أن ينجزوا أعمالا هامة في الفقه الإسلامي وفي العقيدة والأدب العربي وبعضم يتابع دروسا في الحقوق الفرنسية والفلسفة العربية واللغات الأهلية في الجامعات الأمر الذي سيؤدي إلى توسيع أفكارهم وإعطاؤهم مناهج التفكير الحديثة" انظر بهذا الصدد:

GGA,Exposé de la situation générale de l'Algérie, 1901 , p.214

[55] سيف الإسلام(الزبير)، تاريخ الصحافة في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر1985،ج.؟،ص.35.

[56] جغلول، المرجع السابق،ص.61

[57] Kaddache(Mahfoud) , Op. Cit. , Alger,T.1, p.207

[58] Colonna(Fanny), Savants paysans, p.216

[59] Smati(Mahfoud), Les élites algériennes sous la colonisation,T.1, , p.189

[60] ابراهيم بن حسن بن بريهمات، ولد بالعاصمة سنة 1848 ودرس بها في مدرسة الجزائر الرسمية أو في المعهد السلطاني وأصبح من المترجمين وتولى مهمات عديدة للفرنسيين ثم ترك الشؤون الأهلية سنة 1875. ينظر:
Hamet (I.), Op.cit, pp.199et stes

[61] الدكتور نقاش محمد ولد سنة 1856 بندرومة خريج المتوسطة العربية وثانوية الجزائر طبيب بوهران.

[62] بلقاسم بن سديرة ولد سنة 1845 ببسكرة خريج المدرسة العربية بالجزائر العاصمةوالمدرسة العليا بفرسايمراقب بالمدرسة العليا بالجزائر سنة 1876 أستاذ العربية بالمدرسة العليا سنة 1869 معلم بالمدرسة سنة 1869 أستاذ محاضر بمدرسة الآداب بالعاصمة سنة 1880 استغل بالمحكمة بالجزائر. له عدة منشورات: النحو للعربية المنطوقة، دروس تطبيقية في اللغة العربية ، دروس في الأدب العربي، حوارات فرنسية-عربية، قاموس عربي-فرنسي، دروس في اللغة الأمازيغية. ينظر: Hamet (I.), Op.cit, pp.199et stes

[63] محمد بن شنب ولد في 26 أكتوبر 1867تخرج من مدرسة المدية ومدرسة بوزريعة معلم في التعليم العام أستاذ بمدرسة الجزائر موظف بالأكاديمية سنة 1903 تشر بالمجلة الإفريقية مقالا بعنوان:" المزارعة في الفقة المالكي" و"مبادئ البيداغوجية الإسلامية" كما نشر مقالا في أعمال المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين سنة 1905 حول " صحيح البخاري لدى سكان الجزائر" Hamet (I.), Op.cit, pp.199et stes

[64] صوالح محمد ولد بفرندة بوهران سنة 1873 تخرج من مدرسة الجزائر حيث حصل على الشهادة العليا بكالوريا التعليم الحديث سنة 1894 حاصل على شهادة من المدرسة العليا للآداب سنة 1898 مترجم قضائي سنة 1898اشتغل كمشارك في نشرية تعليم الأهالي كما اشتغل في تنظيم المكتبات العربية لصالح الأهالي واستحدث التعليم التجاري الفرنسي العربي بالمدرسة العليا للتجارة. نشر كتباً عديدة طبق فيها الطرق البيداغوجية الحديثة لتعليم العربية بواسطة الفرنسية. Hamet (I.), Op.cit, pp.199et stes

[65] الدكتور بن تامي بلقاسم ولد احميدة من مستغانم حاصل على بكالوريا التعليم الحديث في الآداب والفلسفة و على منحة من مدرسة الطب بالعاصمة سنة 1897 نال شهادة الدكتوراه في جانفي 1905 بمنبولييه بفرنسا نشر بحوثا في مجال الطب. Hamet (I.), Op.cit, pp.199et stes

[66] جغلول،المرجع السابق، ص.99

[67] Cf. Agéron(Ch. R), Histoire de l'Algérie contemporaine (1871-1954),3e ed.,P.U.F ,Paris1969 pp.848-962

حاولت فاني كولونا أن تعطي معنى لهذه الإحصائيات مقارنة مع تعداد الجزائريين الذي كان يقدر ب 4700000 سنة 1914 ومقارنة مع تعداد المتمدرسين من الأهالي في النظام التعليمي الاستعماري الذين بلغ تعدادهم سنة من الفئة القابلة للتّمدرس. 1940% حوالي 45000 أي نسبة أقل من 5

[68] سجل تقرير شونارد هذا التثاقل في وتيرة سير التلعليم في المرحلة الابتدائية خصوصا وذكر أنه في سنة 1902 كان هناك 25921 تلميذا موزعين على 235 مدرسة من 448 قسما. أما في سنة 1907 فكان العدد 32517 تلميذا موزعين على 375 مدرسة من 557 قسما. ورغم كون وتيرة تطور التعليم في هذه المرحلة ثابتة إلا أن المكتسبات في هذا المجال كانت ضعيفة، إذ أن الزيادة بين 1899–1907 لم تتجاوز 8000 تلميذا خصوصا في المرحلة التي شرع الأهالي يطالبون بفتح مدارس جديدة. ينظر بهذا الصدد:

Rapport Chenard, « Enseignement primaire des Musulmans algériens 1830-1944 », AOM, Aix-en-Provence

[69] Colonna(F.), Instituteurs algériens1883-1939, p.92

[70] Colonna(Fanny), Savants paysans, p.223

[71] يذكر عمار هلال أن الزيتونة و فروعها المختلفة في الجزائر وتونس هي التي كانت تمنح الجزائر أكبر عدد من المثقفين الذي صارت شهرتهم تنتشر شيئا فشيئا في الداخل وفي العالم العربي وكان عدد منهم ينشر أفكاره في مختلف الصحف التونسية. انظر:

Hellal(Amar), Le mouvement réformiste algérien (1831-1957), O.P.U., Alger 2002, p.89

[72] الملاحظ أن الفئات التي استفادت من التعليم الفرنسي أو العربي الإسلامي في المدارس الفرنسية هي التي كانت لأوليائها صلات بالإدارة الاستعمارية أو التي تجنست أسرها بل يذكر أن بعض هؤلاء المتخرجين من المدارس الفرنسية كانت أمهاتهم أوربيات(المؤلف)

[73] Colonna(Fanny), Savants paysans, p.223

[74] جغلول، المرجع السابق ، ص.61

[75] كان الاستعمار يفضل أن تحافظ النخبة على بعض المظاهر الإسلامية لكي تبقى واسطة بين الإدارة الاستعمارية والمجتمع الجزائري. فقد صرح وليام مارسي خلال مؤتمر إفريقيا الشمالية سنة 1909 بقوله:" ينبغي أن لا نجردهم من الإسلام حتى لا ينظر إليه إخوانه في العقيدة كمرتد.. " (sahli,Op.Cit.,p.115-116)

[76] ينظر مقال: صمويت كرمال، « الاستعمار الرأسمالي الفرنسي وحركة الشباب التونسي1881–1914 »، المجلة التاريخية المغربية، عدد: جانفي1974

[77] قداش و صاري،المرجع السابق، ص ص.16–17

[78] Kaddache, Op.Cit., T.1, p.75

[79] Ibid.,m.p

[80]Pervillé,Op.Cit.,p.44